المبحث الأول

الحياة الزراعية وتطورها في صدر الإسلام

تمهيد:

لقد ظهرت الشريعة الإسلامية في – واد غير ذي زرع – وفي المجتمع القرشي المكي الذي اشتهر بالنشاط التجاري،وليس للنشاط الزراعي فيه كبير شأن، وللعامل الجغرافي في هذا الوضع أثر بيّن.

ولكن بالرغم من ذلك، فإن القرآن الكريم حافل بعشرات الآيات التي تتحدث عن الأرض،والماء، والزرع، والزراع، داعية الإنسان إلى التدبر في ملكوت الله،والتأمل في قدرة خالق هذا الكون.

قال تعالى: ﴿**وفي الأرض قطع متجاورات،وجنات من أعناب،وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد،ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾(١)

وقال عز وجل: ﴿**وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات،والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان، متشابهاً وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر،وآتوا حقه يوم حصاده، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾(٢)

وقال جل جلاله: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾(٣)

وغير ذلك من الآيات الكريمات العديدة الداعية إلى التدبر في ملكوت الله،وفي مظهرين بارزين من هذا الكون وهما: الأرض والماء.(٤)

---

(١) سورة الرعد/ الآية ٤.

(٢) سورة الأنعام الآية/ ١٤١.

(٣) سورة البقرة الآية/ ٢٢.

(٤) أنظر في ذلك الآيات الآتية: سورة الرمر/ الآية ٢١،وسورة الأنعام/ الآية ٩٥،وسورة النحل/ الآية ٦٥، وسورة لقمان/ الآية ١٠،وسورة فصلت/ الآية ٣٩،وغير ذلك من الآيات،ونظر في هذا الصدد فهارس آيات القرآن الكريم – مادة الزرع والأرض.

كما نجد في كتب السيرة النبوية أحاديث كثيرة تحث على استصلاح الأرض وخدمتها، وتعطي العمل الزراعي قيمة كبيرة في حياة المجتمع.

فقد جاء في مسند عمر بن عبد العزيز أن شهاب قال: (أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز – وهو خليفة فقال: جاء سعد بن خالد بن عمر بن عثمان – فقال: يا أمير المؤمنين: اقطعني الشديد، فإنه بلغني عن رسول الله ﷺ قال: (ما من رجل غرس غرسا إلاّ أعطاه الله من الأجرعدد الغرس والثمر. وأخذ بنفسي،أسمعت هذا؟قلت: نعم،وأشهد على عطاء بن يزيد أنه سمعه من أبي أيوب يحدث عن رسول الله ﷺ).[1]

وقد اقتفى الخلفاء الراشدون، أثر الرسول ﷺ في التشجيع على استصلاح الأرض للزراعة و العمل الزراعي،وإبراز أثره في حياة المجتمع الإسلامي الجديد.

فقد روي عن معاوية بن قررة، أن عمر بن الخطاب ﷺ لقي ناسا من أهل اليمن فقال: (من أنتم؟ فقالوا: متوكلون. قال: كذبتم، ما أنتم متوكلون، إنما المتوكل رجل ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله)[2]

كما جاءت رؤية الفقهاء المجتهدين إلى العمل الزراعي على تشجيع العمل والاكتساب، فما يكسبه الزراع من عمل يديه تصل منفعته إلى الجماعة عامة ومصلحة الجماعة، تمثل في النشاط الاقتصادي.

وقد استدلوا على ذلك بقول رسول الله ﷺ: (من أحيا أرضاً ميتة فهي له،وليس لعرق ظالم حق)[3] مبرزين أهمية العمل اليدوي لاكتساب الحق في الانتفاع بالأرض،وأن العمل الزراعي مهنة شريفة .

(أ) "الحياة الزراعية التي عاشها مجتمع صدر الإسلام".

سنحاول في هذه العجالة أن نتعرف على التجربة التاريخية التي عاشها مجتمع صدر الإسلام في مواجهة قضية الأرض.[4]

---

(١) أنظر: التراتيب الإدارية – لعبد الحي الكتاني – جـ٢ ص ٤٣.

(٢) أنظر: التراتيب الإدارية – للكتاني – جـ٢ ص ٤٣.

(٣) أنظر: الخراج/ للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ص ٦٥.

(٤) أن مجال الحديث في هذا البحث، لا يسمح لي بالإسهاب عن أصول السياسة الزراعية في تلك الفترة، وبالخصوص عما أحدثه التطبيق العملي من مشاكل معقدة،ونحيل القارئ من أعضاء المؤتمر في هذا الصدد إلى المؤلفات والمراجع التالية: الخراج/لأبي يوسف،والخراج وصناعة الكتابة/ لقدامة بن جعفر،– الزراعة والإصلاح الزراعي في عصر صدر الإسلام/ عواد مجيد الأعظمي. الملكية في الشريعة الإسلامية/ للدكتور عبدالسلام العبادي،والموازنة بين نفقات الدولة ومواردها في صدر الإسلام/ للباحث. رسالة الدكتوراه.

إن الدعوة الإسلامية، لم تواجه موضوع قضية الأرض الزراعية في عالم التطبيق الفعلي إلا بعد تأسيس الدولة الإسلامية،وبداية الفتوحات الإسلامية، انطلاقا من غزوات الرسول ﷺ. فقد صالح الرسول – ﷺ – بني النضير حين دخلت في نطاق الفئ،وهو مال عام ينفقه، ويستغله ولي الأمر بما يراه محققاً للمصلحة العامة.

ومما هو معلوم من الدين بالضرورة، أن الإسلام يؤمن بالملكية الفردية في الأرض، بمعنى أن من حق الفرد أن يمتلكها،وذلك ثابت وواضح من تشريع زكاة الزروع والثمار، فقد قسم الرسول – ﷺ – أرض – بني النضير، بين المهاجرين وبعض الأنصار الفقراء[1]، وذلك عملاً على إحداث قدر من التوازن في ملكية مصادر الثروة في المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام، حيث كان الأنصار يمتلكون أرضهم وديارهم بينما ليس للمهاجرين أرض، فقد تركوا ديارهم وأرضهم بمكة عند الهجرة.

ثم جاءت أرض –يهود خيبر– وقد اختلف الفقهاء في كيفية دخولها الإسلام، فمن قائل بأنها دخلت عنوة، ومن قائل أنها دخلت كلها صلحا،ومن قائل دخل بعضها صلحا وبعضها عنوة، وجرى نفس الخلاف في كيفية تصرفه – ﷺ – فيها، فهل قسمها كلها، أم أبقاها كلها، أم قسم البعض وأبقى البعض.[2] والراجح عندنا أنه – ﷺ – تركها في يد أصحابها مزارعة بينهم وبينه.[3]

وبرغم هذا الخلاف، إلا أن نظرة الشريعة الإسلامية إلى الأرض هو إعطاء الأولوية للإنتاج، واستمرار الأرض في عطائها،واتقاء أي تحويل من شأنه أن يعرقل الإنتاج الزراعي ويعطله.

ولما كان المسلمون في تلك الفترة غير قادرين على زراعة الأرض وخدمتها، تركت الأرض بأيدي أصحابها الأصليين،ولهم نصف من كل ما يخرج منها من زرع، أو ثمر، ولذا نجد النبي – ﷺ – دفعها إلى يهود خيبر– يعملون عليها بنصف الخارج منها.[4]

---

(١) أنظر: زاد المعاد في هدي خير العباد/ لأبن القيم الجوزيه جـ٢ ص٧١،وكذا الجامع لأحكام القرآن/ لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي جـ١٨،ص١١.

(٢) أنظر: سيرة النبي – ﷺ – لأبي محمد عبد الملك بن هشام جـ٣ ص ١٩٣،وفتح الباري بشرح صحيح البخاري/ الأمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني جـ٦ ص٢٢٥.

(٣) وهذا الموقف من رسول الله – ﷺ – فيه دلالة قاطعة على معاملة الأرض مزارعة بين مالكها والعامل عليها.

(٤) أنظر: الاستخراج لأحكام الخراج/ لأبي فرج عبد الرحمن بن احمد بن رجب الحنبلي ص ٢٣،وزاد المعاد /لابن القيم جـ٢ ص ٧٦.

هذا وقد خيروا أي النصفين شاءوا، أو الخرص بأنفسهم،وترك الخيار لنائب المسلمين. وفي هذا الصدد يقول: أبو يوسف بن يعقوب[1] "حدثنا مسلم الخزاعي عن أنس بن مالك، أن رسول الله - ﷺ - دفع خيبر إلى اليهود مساقاة،وكان يبعث إليهم عبد الله بن رواحة فيخرص عليهم، ثم يخيرهم أي النصفين شاءوا،أو يقول لهم: اخرصوا أنتم وخيروني، فيقولون:" بهذا قامت السموات والأرض ".

وقد استمر الحال على ذلك، حتى كان عمر بن الخطاب - ﷺ - وكثر في أيدي المسلمين العمال، ووقوا على زراعة الأرض، فأجلى عمر بن الخطاب ﷺ اليهود إلى الشام، وقسمت الأرض بين المسلمين.[2]

وصولح أهل (فدك) على مثل ذلك، فيروي يحيى بن آدم القرشي: (أن بقية من أهل خيبر تحصنوا، فسألوا رسول الله - ﷺ - أن يحقن دمائهم ففعل. فسمع بذلك أهل (فدك) فنزلوا على مثل ذلك، فكانت أموالهم فيئا، لأنها لم يرجف عليها بخيل ولا ركاب[3]

ويذكر البلاذري أن رسول الله - ﷺ - بعث إلى أهل (فدك) بعد منصرفه من (خيبر)- محيصه بن مسعود الأنصاري-يدعوهم إلى الإسلام فصالحوا الرسول - ﷺ - على نصف الأرض بتربتها، فقبل ذلك منهم، فكان نصف (فدك) فيئا لأنه لم يرجف عليها بخيل ولا ركاب.[4]

ثم جاءت أرض الفتوح في عهد عمر بن الخطاب - ﷺ - وأخذت قضية الأرض بعدا جديداً في هذا العصر، بعد فتح أراض شاسعة، ومناطق زراعية خصبة -مثل- أرض السواد،وأرض بلاد الشام ومصر،وهذا ما أجبر مركز الخلافة على تحديد موقفها من موضوع ملكية الأرض.

وبدأ نقاش مطول في ملكيتها، قررت الدولة استناد إلى نص قرآني، وإلى المصلحة العامة، وبموافقة أهل الرأي والشورى، إبقاء تلك الأرض بيد أهلها[5] وبرزت تنوع في صيغة

---

(١) أنظر: الخراج: ص ٥٠

(٢) أنظر: السيرة النبوية/لابن هشام ،والكامل في التاريخ/ لعز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف -بابن الأثير- جـ٢ ص ٢٢٤.

(٣) أنظر: الخراج ص ٣٧.

(٤) أنظر: فتوح البلدان/ لأحمد بن يحيى بن جابر المعروف - بالبلاذري - ص ٣٦.

(٥) أنظر: الخراج/ لأبي يوسف ص٢٥، الأموال/ لأبى عبيد القاسم بن سلام ص٨٤، أحكام القرآن/ لأبى بكر احمد الرازي للجصاص جـ٣ص٤٣٠.

ملكيتها واستغلالها، فهناك الملكية الخاصة، وهناك الملكية العامة -مثل: الصوافي التي هي ملك للأمة.(١)

(ب) السمة الأساسية لاقتصاديات الزراعة في تلك الفترة .

إن الاقتصاد الزراعي في تلك الفترة، كان رعوي، بالرغم من أهمية النشاط التجاري، والذي كاد يقتصر على أسواق المدن الرئيسية في الحجاز -مثل- مكة والمدينة المنورة، وعلى أسواق الأمصار الإسلامية الجديدة.

وكانت أساليب الزراعة: تختلف من منطقة لأخرى حسب المعطيات المناخية، وكان إنتاج الثمار، ولا سيما التمر،وتربية الماشية، فتميز بهما الزراعة في منطقة المدينة المنورة، كما كانت تنتج الحبوب،وقد كثرت الغلال بأرضها في زمن معاوية،وكان يحرث بها (مائة ألف وسق وخمسين وسق)، ويحصد مائة ألف حنطة.(٢)

وتشير بعض النصوص إلى أزمة في مراعي المدينة المنورة،وقلة العلف بها لما تكاثر سكانها،ونزح إليها كثير من العرب.

فقد حدث إبراهيم بن محمد عن أبيه قال:(اتخذ عبد الله بن أبي ربيعه،افراساً بالمدينة، فمنعه عمر بن الخطاب - ﷺ - فكلموه في أن يأذن له، قال:" لا آذن له إلا أن يجئ بعلفها من غير المدينة، فارتبط أفراساً،وكان يحمل إليها علفا من أرض له باليمن)(٣)

فقد كانت الأولوية، تعطى لإبل الصدقة،وخيل المسلمين،والمدينة واحة لا تتجاوز أراضيها حدوداً معينة فهي في مقدار نصف (مكة).

وكانت الزراعة السقوية تعتمد على الآبار،وعلى عيون كثيرة، تجددت بعد هجرة النبي - ﷺ - إلى المدينة وتأسيس الدولة الإسلامية،وما رافقه من تطور سكاني وعمراني، ويتقسم نشاط الفلاحين في تلك الفترة إلى نوعين أساسيين: مباشرة الزراعة في الأرض المنتجة، أو تربية الحيوانات.

وإذا بحثنا عن السمة الأساسية عن اهتمام سكان المدينة بالذات في المجالات الزراعية، فإننا نجد الأنصار قد شغلتهم الزراعة بالدرجة الأولى، أما المهاجرون، فقد ركزوا جهودهم

---

(١) أنظر: تفصيل ذلك في كتاب الخراج/ لأبي يوسف: ص٥٧ وما بعدها.

(٢) أنظر: التراتيب الإدارية/ للكتاني جـ٢ ص ٥.

(٣) أنظر: تاريخ الرسل والملوك/ لأبي جعفر محمد بن جرير المعروف- بالطبري - جـ٤ ص ٢١٤.

على التجارة، ولكنهم لم يهملوا الزراعة، وكان للعامل الجغرافي تأثير -بلا شك- في النشاط الاقتصادي لهاتين الفئتين الرئيسيتين من الفئات السكانية في المدينة.

فقد روي عن أبي هريرة أنه كان يقول: (ليقولون ما للمهاجرين والأنصار، لا يحدثون بمثل حديثي، فأخبركم أن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أراضيهم، وأن أخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق.)[1]

وروى البلاذري: أن الرسول - ﷺ - كان يزرع تحت النخل الذي غنمه من بني (النضير)[2] أو في المناطق ذات الحصون الكثيرة مثل (خيبر)، حيث كان النشاط الزراعي مركز في الأحزمة المحيطة بالحصون وقد تطور النشاط الزراعي نتيجة اتساع مساحات الملكيات الخاصة.

وكانت القوة المنتجة في النشاط الزراعي في تلك الفترة: تتألف من المزارعين الصغار والرعاة[3]والعبيد في أراضي كبار الملاك،وكان لتدفق الرقيق على المدينة والأنصار في النشاط الزراعي، أثر كبير وخصوصاً في إحياء الأرض الموات وتطوير أساليب الري، كما كان من أهل الذمة في الأراضي المفتوحة عنوة،والتي تركت بأيدي أصحابها الأصليين أثر كبير في الاقتصاد الزراعي.

وقد كان من بين كبار الصحابة من كان يقوم بالعمل الزراعي في ضيعته بنفسه[4] كما كان تكلف أصحاب الأراضي قيمين على أرضهم ورعاة يرعون ماشيتهم.

وبالرغم من تنوع القوى العاملة في النشاط الزراعي، فإن فئة العبيد تبقى هي القوة الأساسية، وأصبحت تمثل غداة الفتوحات فئة اجتماعية بارزه في مجتمع المدينة. وهناك من الأمثلة الكثيرة التي تبرهن بوضوح، على الجهد الكبير الذي قامت به فئة الرقيق في تطوير الزراعة في مجتمع صدر الإسلام.[5]

---

(١) أنظر: التراتيب الإدارية/ للكتاني جـ٢ ص ٤٤.

(٢) أنظر: أنساب الأشراف جـ١ ص ٤٠٧.

(٣) أنظر: تفصيل ذلك في تاريخ الرسل والملوك/ للطبري: جـ٤ ص ٣٥٥.

(٤) أنظر: التراتيب الإدارية / للكتاني جـ٢ ص ١٠٢.

(٥) أنظر ذلك بالتفصيل: في كتاب أنساب الأشراف/ للبلاذرى القسم الثالث ص ٦ وما بعدها.

تعقيب

حول النشاط الزراعي في مجتمع صدر الإسلام

أولاً: محاولة الدولة في تلك الفترة التغلب على مشكلة المياه،وتطوير نظام الري، حيث كانت السقي في المدينة المنورة يعتمد على الآبار،وبجانب ذلك أقيمت السدود لتخزين مياه الأمطار، والاستفادة منها في تحويل أراض بعلية إلى أراض سقوية.

ومن هذه السدود، سد معاوية بن أبي سفيان، على الطريق بين المدينة المنورة،ومعدن بني سليم.

كما أنشئ عدد من السدود في العقيق لتخزين مياه السيول،ومن أشهر هذه السدود، ذلك السد الذي أنشئ في عهد معاوية بن أبي سفيان شرقي الطائف.(١)

وقد ساهمت العيون مساهمة فعالة في تطور أساليب الزراعة واتساع المناطق السقوية، فقد كان في واد (ساية) أكثر من سبعين عينا، وفي (ينبع) مائة عين غزيرة واعتنت سياسة الري بحفر العيون اعتناءها بحفر الآبار.(٢)

ثانياً: تنوع المنتجات الزراعية، فكانت في طليعة قائمة هذه المحاصيل -التمور- وخصوصاً في المدينة المنورة(٣) حيث تعددت فيها أنواع التمور، حتى تجاوزت مائة وثلاثين نوعاً، كما كانت هناك مناطق مجاورة للمدينة عرفت بإنتاجها للتمور وكذلك مناطق من واحات الحجاز اشتهرت بإنتاج التمور.(٤)

كما اشتهرت منطقة اليمامة في إقليم (نجد) بتصديرها لكميات كبيرة من التمور إلى أسواق الجزيرة العربية ،وخارجها.

ويحتل إنتاج الحبوب المرتبة الثانية في قائمة المحاصيل الزراعية،واشتهرت منطقة الحجاز واليمامة بإنتاج الحبوب.

---

(١) أنظر: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى(آبار المدينة)/ للسمهودي جـ٤ ص١١٣٣،وما بعدها.

(٢) أنظر: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجدوا الحجاز في العصر الأموي/ عبد الله محمد السيف/ص٥٥،وما بعدها.

(٣) أنظر: الحياة الاقتصادية/ للسيف ص ٦٥،وما بعدها.

(٤) من هذه المناطق – القُف– وهو واد من أودية المدينة والتي عرفت بإنتاجها للتمور والصفراء والرحضية، ومن واحات الحجاز التي اشتهرت بإنتاج للتمور: – واد القرى، وفدك. وتيماء، والبردان، وخيبر – أنظر: أنساب الأشراف/ للبلاذري. جـ١ ص٢٧٨.

ويبدوا أن زراعة الشعير أكثر انتشار في ضواحي المدينة،وكان طعام عامة الناس بالمدينة في عصر الرسول - ﷺ - الشعير والتمر.

وعرفت مدينة الطائف، بزراعة الكروم،وقد أصبح يحول أغلب الإنتاج إلى زبيب في تلك الفترة، كما كان هناك محاصيل زراعية أخرى وأنواعاً من الخضر والفاكهة، مثل:(الرمان والتين والبطيخ،وغيرها).

ونود الإشارة هنا، إلى أن أصنافاً من الإنتاج الزراعي قد أصبح يمثل بضاعة ثمينة في أسواق المدن التجارية بالجزيرة العربية،وفي الأمصار الجديدة في تلك الفترة، نتيجة ارتفاع الطلب للمواد الاستهلاكية،وهكذا أصبحت الزراعة مورداً ثرياً من موارد الثراء في مجتمع صدر الإسلام.